التلقي النقدي المنهجي (التاريخي) وعمق القراءة في شعر نزار قباني

إعداد الباحث
نادر إبراهيم محمود الشرباصي

مدخل:

لقد عرف النقد العربي الحديث والمعاصر مجموعة من المناهج النقدية نتيجة الانفتاح على الثقافة الغربية، ولكن منهج التلقي والتقبل يركز على القارئ أثناء تفاعله مع النص الأدبي قصد تأويله وخلق صورة معناه المتخيلة، ولذلك عرفه (على جواد الطاهر) (١٩١١م- ١٩٩٦م) على أنه " تطبيق قوانين العلم الصرف على الادب"[١] والنقد الأكاديمي وهو تجارب متعددة ؛ لدراسة طويلة متخصصة، وحساسية نقدية مصقولة. و في كتاب (موت الناقد) ، أكد الناقد البريطاني رونان ماكدونالد أن دور الناقد قد تضاءل وشحب بسبب ابتعاده بشكل جليّ عن كتابة (النقد التنويري)، وفي تقديمه للكتاب لفت المترجم فخري صالح **تعريف للنقد الاكاديمي** حيث وضعه في معني موت الناقد "دراسات وبحوث مليئة بلغة الرطانة التي لا تفهمها سوى نخب متخصصة عالمة باللغة الاصطلاحية والمفاهيم والمنهجيات التي توجه هذا النوع من الكتابات النقدية التي لا تلقي بالا لما تهتم به الجمهرة الواسعة من القراء من تعريف بالأعمال الأدبية وتقديم إضاءات حولها"[٢].

المنهج التاريخي

يعرفه (ماهر فهمي): "يقوم على دراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي ينتمي إليه الأدب، ويتخذ منها وسيلة لفهم الأدب وتفسير خصائصه واستجلاء كوامنه وغموضه. ويعني المنهج التاريخي بدراسة العوامل المؤثرة في الأدب، بعبارة أخرى أن: الطابع التاريخي والسياسي والاجتماعي لازم لفهم الأدب وتفسيره، لذا لا يكون الأديب عبقرياً لو تقدم عصره أو تأخر عنه مادامت عوامل البيئة قد وجهته، وأفرزته إلى هذه الوجهة"[٣].

---

(1) علي جواد الطاهر : مقدمة في النقد الادبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩م، ص ٤١١.

(2) رونان ماكدونالد: موت الناقد ترجمة فخري صالح المركز القومي للترجمة ٢٠١٥م ص ١٠.

(3) ماهر فهمي: المذاهب النقدية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١ ، ١٩٦٢م ص١٨١.

يتخذ المنهج التاريخي، من الحوادث التاريخية والاجتماعية والسياسية طريقا لتأويل وتفسير النصوص الأدبية وتعليل ظواهره وخصائصه ، و(سيد قطب) " يعترف علي نفسه بقابلية أحكامه في كتابه كتب وشخصيات للتخطئة ؛ لأنه اعتمد عل المشهور من الشعر العربي في المنهج الفني ولو شمل غير المشهور لم يكن استقراؤه ناقصا."([1]) و الاتجاه التاريخي اتجاه يأخذ من الاتجاه الفني من دراسته لشكل العمل الأدبي والإطار الذي وضع فيه ، وهو في هذا الجانب أكثر شمولا من الاتجاه الفني . ومجال هذا الاتجاه " يشمل وسط الأديب وانعكاسه على العمل الأدبي مؤثراته في الأديب ، والمراحل التي مربها العمل الأدبي والآراء التي قيلت فيه وفى صاحبه و وموازنة تلك الآراء ودراستها للوصول إلى خصائص أمة ما في الأدب وأنماط تفكيرها في عصرها والظروف التي أحاطت بها ، كما أن مجاله لتحقيق النصوص وصحة نسبها لقائلها " ([2]) والناقد الباحث أذا كان بصدد دراسة التطور التاريخي ، لفن من فنون الادب تتبعناه منذ بداياته الأولى والأطوار التي مر بها والملابسات المتعلقة به والآراء المختلفة والأحكام التي صدرت فيه هذا كله هو مجال الاتجاه التاريخي في النقد . " للتأريخية معنيان عام وخاص ، العام منهج البحوث التي تنظر إلى الفرد في علاقاته بالتطور البشري ، وهو في الحقل الأدبي تقتضي دراسة الأديب أو الحركات الأدبية العامة تبعا للتطور الفني والاجتماعي والسياسي والديني ... ،ان التاريخية – بالمعنى الخاص – الذي يقوم المنهج عليها ، تأخذ من التاريخ أضيق دلالاته أي ارتباط الحدث بزمن ،من تقسيم الأدب الى عصور وصفات كل أدب من كل عصر " ([3])

([1]) ضياء الصديقي ، عباس محجوب : فصول في النقد الأدبي وتاريخه ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، مصر ، ط١ ،١٩٨٩م ص ١٩٧

([2])) ضياء الصديقي ، عباس محجوب : فصول في النقد الأدبي وتاريخه ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، مصر ، ط١ ،١٩٨٩م ص ١٩٧

([3]) جواد على الطاهر :مقدمة في النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م ص ٣٩٧

مهما يكن من أمر، "أن المنهج التاريخي في نقد الادب يستعير مصطلحاته – بطبيعة الحال – من مجالات التاريخ و التي تتحدث عن العصر والبيئة وغيرهما، وكذلك يستعير مصطلحاته من تلك المصطلحات التي نشأت ونضجت وتطورت على مر التاريخ، وأصبحت علامة علي منظومات فكرية، ومذهبية"[١].

ومن ناحية أول كاتب طبق هذا الاتجاه فهو كما يقول (سيد قطب): في كتابه النقد الأدبي (طه حسين) في (تجديد ذكرى ابو العلاء) و(أحمد أمين) (فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام) وقد سلك هذا الطريق أغلب الذين كتبوا في تاريخ النقد والادب والنثر الفني ، وعن هذا الاتجاه في العصر الحديث يقول (قطب) : " نما نموا محسوسا عما خلفناه في القرن الرابع ولكنه ما يزال إلى اليوم في دور النشؤ ، فخطوته التمهيدية الأولى من جميع النصوص وتحريرها وجمع الوثائق التاريخية وتبويبها والبحوث اللغوية والأدبية والاجتماعية الكاملة عن الفترات والشخصيات التي ندرسها ، كل أولئك يتعب فيه كل مؤلف على حدة ولا يتخصص له من يجدونه ؛ ليوفروا على النقاد جهودهم ، وبتوفير الخامات الأولى للبحث " ([٢]). واهمية هذا الاتجاه في النقد كما يرى (محمد مندور) إنه " هو المنهج الذي استقر الباحثون على جدواه منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى اليوم وبفضله جددت الإنسانية من معرفتها بترثنا الروحي وزادته خصبا "([٣]) ونجد دراسة العنصر الشخصي والتميز الفردي أكثر فائدة في الحكم على العمل الأدبي من المؤثرات الوسيطة والبيئية التي لا يغفل أهميتها ولكن بقيمتها وحجمها .

النموذج التطبيقي، ١:

---

[1] صلاح فضل مناهج النقد المعاصر ميريت للطباعة والنشر ٢٠٠٢ ص ٤٢.

(2) سيد قطب :النقد الأدبي اصوله ومناهجه، ، دار الفكر العربي، مصر، دط، بدتا .ص ١٨١

([3]) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ،١٩٦٩م ص ١١

نزار قباني ودوره في تاريخنا الادبي (سلمي الخضراء الجيوسي) دراسة في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال دار سعاد الصباح ١٩٩٨م.

تذهب (الجيوسي) أن، نزار قباني لم يتأثر بالموروث الثقافي الذي كان سائد في الأربعينيات وانه لم يتأثر بأسلوب أي شاعر، أنه منذ باكورة أعماله كانت له بداياته المتميزة، "أني أتحث هذه الواقف لكي أحاول الكشف عن التطور الكبير الذي عرفته سيرة نزار الشعرية والفكرية عبر السنوات، وجيل الخمسينيات أيضا الي حد ما، إن إحساس القارئ اليوم بالنفور الشديد من هذه المواقف الاولى هو مؤشر حساس الي تطور الأفكار والمواقف"[١] انطلاقة (الجيوسي) مع بدايات نزار قباني وكسر أفق توقع القارئ العربي المعاصر له لان ؛ نزار قباني لجأ إلى الخروج عن الصي والصيغ المتعارف عليها ،وطرائق التعبير الموضوعة ، وهذا من خلال استعمال مختلف أشكال الإنزياحات والنظم الإشارية، فتحدث جراها خيبة لدي القارئ أو " كما يسمها ياوس خيبة أفق لدى القارئ " ([٢]) وعليه يري (ياوس)أن مقرا جمالية العمل الأدبي يكمن أساسا في مدى قدرة المبدع على الانزياح الجمالي عن أفق الانتظار ، وتجاوزه لما تتعاطاه التجارب السابقة وتحرير للوعي ، بتأسيس إمكانية جديدة لفهم النص الأدبي ؛ " وبعبارة أخرى لان القيم الجمالية للعمل الأدبي الجديد تكون أكبر كلما تغير الأفق السائد ضرورة ملحة يتطلبها استقبال هذا العمل وفهمه "([٣]) وبهذا تتحول اللغة الشعرية إلى كسر للقواعد اللغوية النحوية واللغوية بدرجات متفاوتة ، لتخلق قواعد خاصة بها، تفسح مجلات لتعدد القراءات والتأويلات ،ومما لاشك فيه أن نزار قباني كان له حظ وافر من النصوص التي فاجأ بها متلقيه ، خاصة فريق القراء من المتخصصين

---

[1] سلمي الخضراء الجيوسي:نزار قباني ودوره في تاريخنا الادبي دراسة – في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م ص ٩٨.

([2]) محمد أحمد على : في تأويل النص الأدبي ، عالم الكتب الحديث ، أربد الأردن ،ط١، ٢٠٠٦م ص٢٢٥

([3]) عبد الكريم شرفي : من فلسفات التأويل الى نظريات القراءة ،منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ،٢٠٠٧م ص ١٦٦

واللغويين الذين لم يتسن لهم إدراك أبعد معانيه فكثرت مآخذهم على شعره ، ورغم معرفتم لقدراته اللغوية ، فسمح لنفسه بإنشاء مظاهر من الصيغ والتراكيب الجديدة ؛ حتى ولو خالفت ما ورد عند غيره من معاصره .

ومن أصحاب تجارب القراءة (لنزار قباني) (عبدالعزيز المقالح)(١٩٣٩ م) وانطلاقا الاتجاه التاريخي يقول " ومعظم من يقرأون القصائد الأخيرة لنزار لا يدركون أن هذا الاتجاه الناقد الواخز في شعره الراهن يعود إلى منتصف الخمسينيات ،وأن جذوره الأولى تمتد إلى قصيدته التي شاعت وذاعت ولقيت كثيرا من القبول وكثيرا من الرفض أيضا ، وهي قصيدة (خبز وحشيش وقمر) والتي شكلت الملامح الأولى لهذه التجربة كما كانت قراءة عالية وصادقة التي شكلت الملامح الأولى لهذه التجربة كما كانت قراءة علية وصادقة لظاهرة اللامبالاة العامة ، فيها من الأسى والحسرة على واقع الناس أكثر مما فيه من الشماتة والسخرية اللاذعة " ([1])

في بلادي..

حيثُ يبكي الساذجونْ

ويموتونَ بكاءْ

كلّما طالعهم وجهُ الهلالِ

ويزيدونَ بكاءْ

كلّما حرّكهم عودٌ ذليلٌ.. و"ليالي"..

ذلكَ الموتُ الذي ندعوهُ في الشرقِ..

"ليالي".. وغناءْ

([1]) عبدالعزيز المقالح :نزار قباني وشعرية الوخز بالكلمات ، دراسة – في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م ص ٤٥٩.

في بلادي..

في بلادِ البُسطاءْ.. " ([1])

إن جمالية التلقي لها دور مهم نظريا وتطبيقا من أجل صياغة طرق ووسائل لزيادة فعالية العمل الإبداعي للقارئ والكاتب معا، وحسب ما أقره (ياوس) يذهب إلى أن الجوهر التاريخي لعمل أبداعي مالا يمكن بيانه عن طريق فحص عملية إنتاجه ، أو مجرد وصفها . بل إن العمل ينبغي أن يدرس بوصفه جدلا بين الإنتاج والتلقي ؛ أي التفاعل بين المبدع والمتلقيين ، وبهذا النوع من الممارسة يصبح للأدب معنى بوصفه مصدر للتوسط بين الماضي والحاضر ، وقد عمل (ياوس)على تحديد أهدافه في نظرية الاستقبال المتمثلة بالعمل على أعادة التاريخ الى موقعه الصحيح من الدراسات الادبية ، وإحياء مسيرة دراسة النصوص الأدبية من خلال المحافظة على نوع الصلة الحيوية بين نتاجات الماضي ، واهتمامات الحاضر ويمكن تبسيط تصور (ياوس) لتاريخية النصوص الادبية من خلال " إن العلاقة بين العمل الأدبي والقارئ تتقدم في مظهر جمالي وتاريخي " ([2]).

ومن خلال الاستقبال للنص الإبداعي، على الناقد– الأكاديمي أن تكون آلياته منهجية في تفسير عمله ، بإعتباره قارئ منتج، قراءة توضح طبيعة فهمه واستجابته للنص المقروء بطريقة نقدية لها وجهتها الفكرية والنظرية. "ولاشك أن شعر نزار يملك قوة أكبر من أي شاعر سواه علي

([1]) نزار قباني : الأعمال السياسية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، بيروت، لبنان ، ج٣ ، بدتا ، ص٢١

([2]) عبد العزيز طليمات ، فعل القراءة ، بناء الذات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، المغرب ، ص١٥١.

التأثير علي القارئ؛ فهو لم يكتب لطائفة ضيقة من الناس تألف التعبير المعقد الجانح وتتصالح معه بل كتب لجميع الناس وخاطب جميع الحساسيات.."[١].

ومن هنا يمكننا القول ، أن نظرية الاستقبال من أنسب النظريات التحليلية التي في مقاربة النصوص الشعرية من مختلف جوانبها الإبداعية ، خصوصا إذا تعلق الأمر بشعر متميز بأبنية التعبيرية ، وصوره الشعرية ، وأبعاده التفسيرية الأولية التي تجعل من المتلقي في علاقة جدلية متوترة مع شعره وهذا هو السر الجمالي الذى تميزت به قصائد (نزار قباني) بحيث المعني ينتج من خلال العلاقة التفاعلية بين النص والمتلقي " أن المعنى عند آيزر هو الذي يُبنى بمساهمة القارئ وعبر فعل القراءة ، باعتبارها عملية تفاعلية أي توصيلية بالأساس " ([٢]) لذلك أصبحت القراءة فعلا منتجا لخلق نصوص أخري من رحم النص الأساسي ، الذى بدوره ينفتح على أنواع من قراءات تجيز بتعدد الدلالات ، فيكون النص سلسة من الألفاظ المنتجة للمعاني.

و(المقالح) قد تتبع شعر نزار عبر العصور المختلفة فيقول: " وفى تقديري الذى يستند إلي معايشة طويلة لشعر نزار ، ومتابعة لهذا الشعر استمرت حوالى أربعين عاما قراءة وتدريسا ونقدا ، إن معظم الأفكار الواردة في هذا البيان لا تنطبق الإ على شعرة السياسي . أما باقي شعره فقد أولاه عناية جمالية تتأسس على معرفة فائقة وخبرة متميزة بالعناصر الفنية المكونة للقصيدة في أرقي مستوياتها ، وهو بحق – من بين قلة من الشعراء العرب المعاصرين الذين يفاخرون بامتلاك ذائقة

[1]سلمي الخضراء الجيوسي :نزار قباني ودوره في تاريخنا الادبي دراسة – في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م ص ١٠٥.

([2])عبد العزيز طليمات ، فعل القراءة ، بناء الذات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، المغرب ، ص١٥٢.

جمالية عميقة ومتطورة" ([1]) وكان تتبع (المقالح) التاريخي لنزار من زاوية استحضار أفق الانتظار التاريخي وهو أمر مهم؛ فإذا أردنا أن ندرس نصوص شاعر مثل نزار، فيلزم أن نسعى إلى التعرف كيف تم تلقي هذه النصوص في مرحلة ظهورها كنظرة أولية، وننظر هل قُرئت كنصوص مستجيبة للأفكار التي كانت مسيطرة في ذلك العصر على القراء، أم أنها جاءت لتصدم مع المعيار السائد، بمعنى هل استجابت لأفق توقع المتلقيين أم أنها خيبت توقعاتهم، على أن هناك حالة أخرى أكثر أهمية بالنسبة للواقع الثقافي لكل عصر، وهي أن تكون النصوص قد عملت على تغيير أفق انتظار القراء " ومن ناحية أخري فأن تواريخ الادب الأدب الحقيقي كتبت بموجب مناهج تم نقدها بسبب عدم اكتمالها النظري"[٢].

وسيعبر حتما هذا الفريق من المتلقين الذين تغير أفق انتظارهم بالاشياء الجديدة التي عملت على هذا التحول، وفي ذلك تقول (الجيوسي) "وكيف تساعدنا دراستنا لإنجازات نزار قباني علي فهم هذا التغير الخفي في أعماق النفس العربية في هذا القرن، والتغير سيبدل وجه الانسان العربي في القرن القادم ويجعل هذه الارض تشق لتبتلع معالم الخراب الذي أحدثه أهل زماننا دون وعي أو شجاعة أو مسؤوليه"[٣].

وبإمكاننا تعقب ردود أفعال القراء لنصوص معينه في عصور متتابعه، أن تقدم للناقد التاريخي صورة شاملة فيما يسميه (ياوس) بـ: اندماج الآفاق؛ فهذا الاندماج هو الذي يحدد بشكل أشمل نموذج الدراسة التاريخية التي يراد منها أن تكون جديدة. إنها ستغير العرض المتتابع للنصوص في مسايرة التاريخ كما يراه القارئ بوصفه متتاليات تفاعل المتلقيين للنص في مسايرة

([1]) عبدالعزيز المقالح :نزار قباني وشعرية الوخز بالكلمات ، دراسة – في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م ص ٤٧٢

[2] روبرت سي هول :نظرية الاستقبال ترجمة : رعد عبد الجليل – دار الحوار للنشر سوريا –١٩٩٢ ص ٧٣.

[3] سلمي الخضراء الجيوسي: نزار قباني ودوره في تاريخنا الادبي دراسة – في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م ص ٩٢.

التاريخ. ستبين كيف تطورت آفاق توقع المتلقون وما هي التفسيرات التي عرضها نص ما عن استفسارات قراء كل عصر." هذه النقلة عند نزار، المليئة بالغبطة، والحيوية، منحته حالا شخصيته المتفردة في مجال الحب والعلاقة المتحركة بين الرجل والمرأة"[١] هذه الرؤية التي قدمتها (الجيوسي) لن تقدم لنا حقيقة النص بل إنها ستعرضه لنا في لحظات تفاعله مع المتلقين، لأنه يمارس تأثيره علي القراء وهم يعيدون إنتاجه لأنهم يؤولونه وفق واقعهم وتصورات زمانهم و عصرهم.

النموذج التطبيقي، الثاني:

- **عنوان الدراسة: نزار قباني شاعر المرأة والسياسية**
- **المؤلف وسنة النشر: نبيل خالد أبو علي،(١٩٥٦م) مكتبة مدبولي ١٩٩٨م**

يستقبل (أبوعلي) شعر نزار قباني يطبق المنهج التاريخي، فقد خصص جزءا من هذا الكتاب شغل حيزًا كبيرًا درس حياته، وعلاقة بالمرأة والحياة السياسية والاجتماعية، في عصره، وأسرته؛ ليرى أثر ذلك كله في شعره وأدبه، فيبدء (أبوعلي) بمولده ونشأته وأسرته "وفي ثنايا الحديث عن والده لم يكن أبي متدينا بالمعني الكلاسيكي للكلمة وكان يصوم خوفا من أمي، ويصلي الجمعة في مسجد الحي في بعض المناسبات خوفا علي سمعته"[٢]. ثم يذكر علاقة نزار بالمرأة ويربطها بالحياة الاجتماعية التي كان يعشها من رغد في الحياة وإطلاله المبكر علي الثقافة الاوربية، ويري (ماهر فهمي) في كتابه نزار قباني وبن ابي ربيعه أن القصيدة تعبر مباشرة عن قيم فكرية واجتماعية وهي في نفس الوقت تنفيس عن أزمة نفسية يحسها الفنان وهو يحول التكيف مع المجتمع.

---

(1) نفسه ١٠٣.

(2) نبيل خالد أبو علي : نزار قباني شاعر المرأة والسياسية ، مكتبة مدبولي ١٩٩٨م ، ص ١١

ونزار ثمرة من ثمرات عصره، قد عمل في إنضاجها الزمان، والمكان والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية ومن هنا حلقة الوصل بين القارئ والمتلقي ،وإن هذا المنظور المتجدد مع كل حقبة ومع أفق كل زمن قد يعني بشكل ما تجدد ا في الصورة التي يظهر به العمل . والتحليل الذى يبحث في العوامل التاريخية التي تفسر لنا كيف أن ظاهرة أدبية ما أُستقبلت على أنها عمل جديد ، وبأي معيار قد تم النظر إلى هذا الجدة في اللحظة التاريخية التي ظهر فيا النص .

إذن (نزار قباني) عند (أبو علي) صورة مرتبطة بواقع، طالما كان منشدا بكل أطرافه لاتجاهات الزمان والمكان والبيئة والعصر، والجنس.

ثم ينتقل المتلقي/ ابوعلى متتبع حياة نزار قباني بعد غزله بالمرأة واتجاهه للسياسة، يبرر ذلك النشأة والمناخ الوطني إلي دراسة الحقوق والالتحاق بالعمل في السلك الدبلوماسي يقول:" أما فلسطين فهي سبب الوجع العربي، وهي التي أخرجت نزار من غرفة نوم المرأة غاضبا ثائرا لذلك لا ينسى جلد الذين أضاعوها، دعاة الوطنية الزائفة.

كانـــــــــــــــتْ فلـــــــــــــــسطينُ لكـــــــــــــــمْ..

دجاجـــــــةً مـــــــن بيـــــــضِها الثمـــــــينِ تـــــــأكلونْ

كانـــــــــــــــتْ فلـــــــــــــــسطينُ لكـــــــــــــــمْ..

قمـــــــيصَ عثمـــــــانَ الـــــــذي بـــــــهِ تُتـــــــاجِرونْ

طـــــــــــــــــــــــــــوبى لكـــــــــــــــــــــــــــمْ..

علـــــــى يـــــــديكمْ أصـــــــبحتْ حـــــــدودُنا مـــــــن وَرَقٍ

فـــــــــــــــــــألفُ تُـــــــــــــــــــشكَرونْ..

علـــــــــــى يـــــــــــديكمْ أصـــــــــبحتْ بلادُنــــــــــــا

امـــــــــرأة مباحـــــــــــةً.. فـــــــــألفُ تُـــــــــشكَرونْ

حــــــــــــربُ حُزيــــــــــرانَ انتهـــــــــــتْ...

فكـــــــلُّ حـــــــربٍ بعـــــــدَها، ونحـــــــنُ طيّبـــــــونْ

وصـــــوتُ فيـــــروزَ، مـــــن الفـــــردوسِ يـــــأتي: "نحـــــنُ

راجعـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــون"

تغَلْغَـــــلَ اليهـــــودُ فـــــي ثيابِنـــــا، و "نحـــــنُ راجِعـــــونْ"

صـــاروا علـــى مِتـــرَينْ مـــن أبوابِنـــا، و "نحـــنُ راجِعـــون

نـــــاموا علـــــى فراشِـــــنا، و "نحـــــنُ راجِعـــــونْ "

وكـــــــــلُّ مـــــــــا نملـــــــــكُ أن نقولَـــــــــهُ:

"إنّـــــــــا إلـــــــــــى الله لَراجعـــــــــــونْ"

ويستمر غضب نزار قباني وثورته، فيصدر في العام نفسه قصيدة (الاستجواب) التي يعري فيها الفكر العربي الذي أدي الي الهزيمة، ويفضح أصحاب الشعارات الزائفة ويعلن عليهم الحرب"[(١)]،ويرى منذ بداية تجربة نزار الشعرية ١٩٤٤م وهو يكتب شعرا ملتزما محدد الأهداف، وبعد حرب يونيه كانت بمثابة صاعقة الوضوح في الشعر الملتزم، يتبني لهجة حادة لإقرار أبعاد المشكلة عن طريق حشر اكبر قدر ممكن من مشاعر الحماس.

(1) نبيل خالد أبو على: نزار قباني شاعر المرأة والسياسية، مكتبة مدبولى ١٩٩٨م، ص١١١,١١٠.

ويبدو أن هذه الدراسة لا تقدم محاور القراءة القائمة على أفق انتظار يعبر عن دراية القارئ بالأشكال التي تميز نص نزار قباني، ولا تدرك قراءته الفرق بين اللغة الشعرية واللغة العلمية، ويبتعد بذلك – المتلقي/ أبو علي، عن الحدود الأدبية إلى الحدود الإيديولوجية التي تحدد أفق انتظاره بوصفه متلقيا له طريقة اجتماعية وفكرية في قراءة موضوعات الشعر غير متعلقة بشاعرية النص.

إن التجربة التي حملتها القصيدة في تضاعيفها شكلت صدمة للقارئ، ونقلته ليعيش اللحظة بكل مأساويتها وأبعادها، ويتفاعل معها بالطريقة ذاتها التي تفاعل معها الشاعر، وربما بتوتر أعظم مما عاشه الشاعر، فلربما كان الشاعر يتوقع أن يمرّ بمثل هذه اللحظات، لكن القارئ هو الذي يقف مذهولا من هذه الحالة المفاجئة التي وضعه الشاعر وسط دوّامتها.

وفى تلقى (يوسف نوفل)(١٩٣٨م) يتساءل هل كان الهم الاجتماعي والسياسي طارئا، او مرحلة جديدة من شعر نزار قباني؟ فكان لابد للإجابة ارتداد زمنى الى ماضي شعره؛ فيبدأ(نوفل) في عملية استرجاع زمنى فيعود ليرى في ديوان قصائد (١٩٥٦م) عام العدوان الثلاثي:

اللـــون مـــات أم أن أعيننـــا هـــي وحـــدها لا تبـــصر اللونـــا

ويبحث ايضا يوسف نوفل في تاريخ الشاعر عن ثمت شيء عن الهم في تاريخ الشاعر فيجد في شعره قصيدة (إفادة إلى محكمة الشعر) الصادر بعد النكسة بقليل سنة ١٩٦٩م

ذبحتنـــا الفسيفـــساء عـــصورا والمـــى والزخـــارف البلهـــاء

البطـــولات موقـــف مـــسرح ى ووجـــوه المثلـــين طـــلاء

ويعلق (نوفل) على البيتين فيقول " وحين صار اللون الأسود هو اللون السائد، بإيحاءاته ودلالاته، في هذه المطولة، أو هذا الديوان القصيد، وكان على خلاف المعهود في أعماله كلها، التي تعتمد ألون البهجة في عالم الأنوثة وما كان شيوع اللون الأسود في هذه القصيدة الا اشارة

الى التشاؤم والانقباض والحذر والريبة والشك والخوف والحزن واليأس و وهو التيار الموجود في رحم الانوثة من موضوعه الشعري"[١]. و(نوفل) ركز على القطب الجمالي، الذى يكمن في عملية القراءة التي تخرج النص من حالته المجردة إلى حالته الملموسة، أي يتحقق بصريا وذهنيا عبر استيعاب النص وفهمه وتأويله. ويقوم التأويل بدور مهم في استخلاص صورة المعنى المتخيل عبر سبر أغوار النص واستكناه دلالاته والبحث عن المعاني الخفية والواضحة عبر ملء البيضات والفراغات للحصول على مقصود النص وتأويله انطلاقا من تجربة القارئ الخيالية والواقعية. ثم يعود (نوفل) لينفي ما عُرف عن نزار أنه شاعر المرأة العاكف في غرف نومها، والناهل من عبقها، فيؤكد أن ذلك وهم في وهم، ويعتبره ما هو الا خضوع للنظرية الجزئية المتبسرة. وجعل (نوفل) في تأويله من القراءة انه يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة ولا يمكن لأحد أن يدعى امتلاك الحقيقة المطلقة؛ لأن القراءة تختلف في الزمان والمكان حسب طبيعة القراء ونوعيتهم. لذلك يرى(إمبرتو إيكو) أنّ هناك أنماطا من القراءة والقراء في دراساته عن النص المفتوح والنص الغائب.

وإذا كان (ياوس) قد أقر بفاعلية الحركة التعاقبية (التاريخية) لسلسلة تلقي العمل وتوالي هذه السلسلة عبر جملة من التأثيرات التي تركها العمل مع كل جمهور ، لأنه أيضا يدعو إلى الإقرار بفاعلية المحور المقابل في التحليل والدراسة الأدبية ، وهو المحور التزامني الذي يحدد وضعية النص الأدبي في أطار السلسلة الأدبية التي ينتظم فيها بمعنى " دمج التحليلين التعاقبي و التزامني في عملية تحليلية واحدة والاستفادة من الدراسة التزامنية للخطاب القائم على التحليل اللساني " [٢]أن التصور المبدئي عند (ياوس) في صياغة نظرية لتاريخ الأدب يعتمد بصورة أوضح على التحليل التعاقبي الذى يهتم بتفسير التغيرات الحاصلة في المعايير والقيم ، هو ما لم يشر اليه أبو

---

[1] يوسف نوفل: أعلام وعلامات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م، ص ٢٤٦

[2]) عبد الناصر حسن محمد : نظرية التوصيل وقراءة في النص الادبي ، المكتب الصري لتوزيع المطبوعات ، مصر ،١٩٩٩م ص ١١٦، ١١٧

على(في تجربه) مع نزار قباني ، والتى يتم بها تلقي العمل من جيل الى جيل أو من جمهور الى جمهور .

وتتبع (محمد الزينو السلوم) اعمال (نزار قباني) بسلسة كبيرة موسومه (نزار قباني بين قوسي قزح) فيقول :" سأحول جاهدا أن يكون هذا العمل محاولة جادة لإضاءة وكشف جوانب هامة في رحلة الشاعر (نزار) بحيث يجد فيا القارئ العادي ، والدارس المتعة ، والفائدة ، معا ، ولهذا تجدني أُكثر من ذكر القصائد التي اخترعها عن قصد باعتبارها مميزة في مجموعاته الشعرية ، ويحبها القراء ويردونها كثيرا .. وسأقوم بدوري في شرح وتحليل مبسط يسهل عليهم ما غاب عنهم لعلى بعملي هذا أصل إلى الغاية المنشودة وراء هذا العمل " ([1]) والتحليل الذي انتهجه (السلوم) لا يمكن من خلاله مطلقا ، أن يبُلغه للبعد التاريخ للعمل الادبي ل(نزار قباني) ، الا إذا ضمن تصوره فعالية الدراسة الوصفية التزامنية للعمل ،بتقريب العمل ، عن طريق تأثيره التاريخي ، من القيم الفنية السائدة التي يستدعيها الجنس الأدبي الذى ينتمي إليه العمل ، وكشف العلاقة بين العمل والمناخ الأدبي ، فالنص لا يستطيع ان يبرز نفسه الا من خلا التنافس مع أعمال أخرى معاصره ،له ، ولذا أن تاريخانية الأدب لا تظهر وتتضح إلا من خلال التزامن والتعاقب وتقاطع هذان المحوران .

ونرى التقاطع بين التزامن والتعاقب مسيطرا علي قراءة (نذير العظمة)(١٩٣٠م) لمجمل قراءات معاصري نزار قباني من النقاد لشعره وقد سمهم لثلاث فئات :

" أ- القراءة الفقهية ومرجعيتها الدينية ولأخلاقية .

ب- القراءة الثورية ومرجعيتها الأيديولوجية القومية وذرائعية النهضة .

ج- القراءة الفنية ومرجعيتها البيان والبلاغة والشعر ، وتاريخه ونظرية أغراضه .

([1]) محمد الزينو السلوم: أشعار نزار قباني بين قوسي قزح، كتب عربية، ،بدتا .

وكلها قراءات مجزأة مسبقة تحكم على النص حكما جاهزا قبل أن تقرأه ، وتحكمها أيديولوجيات دينية فقهية أو دينية أو أخلاقية أو قومية أو بلاغية شعرية ، لا تأبه بالشاعر كنص متكامل ."([1]) والنظام التزامني له ماضيه ، مستقبله الذى يجلى عبر مراحل تطوره ، وهو يعين علي تحديد الوظائف والتشكلات الثابتة أو المتغيرة في نظام اللغة التي تعلب بدورها دورا محدد في نظام الأدب ، فقد تتبع (العظمه) أغلب القراءات المعاصرة (لنزار قباني) قراءة تاريخية تعاقبية كاشفا العلاقة بين نصوص (نزار) والمناخ الأدبي السائد والعلاقة المتطورة بين إنتاج العمل وتلقيه . " ويلاحظ وبالنظر إلى تاريخ الأدب داخل أفق الحوار بين العمل الأدبي والجمهور فأن التعارض بين مظاهر هذا الأفق الجمالية والتاريخية سيتم تأمله باستمرار ، وبالتالي فأن الخيط الواصل بين المظهر الماضي والخبرة الحاضرة ، للأدب ، والذي تضعه المدرسة التاريخية ، سيتم وصله مرة أخري ، وهذا يعني أن العلاقة بين الأدب والقارئ لها صلات جمالية وتاريخية ،تكمن في الصلات الجمالية في حقيقة أن التلقي الأول للعمل الأدبي بواسطة القارئ يتمن اختبارا لقمته الجمالية ،مقارنة بالأعمال الأدبية التي تمت قراءتها فعلا ." ([2])

وانطلاقا من الخاصية الفنية للعمل ، التي تلازمه كشكل فنى عبر مختلف مراحل تلقي التاريخي ، وبالتالي تصبح الخاصية الفنية للعمل ، هي وجه الظهور لهذا العمل بالذات عبر كل لقاء بينه وبين المتلقي . واقترح العظمه معيارا مقبولا في هذا الخصوص ؛ في رأى في شعر نزار شعرية مركبة من نواح ثلاث :

" أولا: شعرية الموقف او ما يسميه نقاد (مجلة شعر) الرؤيا أو التجربة أو المعاناة . فرؤيا نزار للمرأة ذات بعد واحد ابتدأت بالشهوة وانتهت بالوطن والأنسان والحضارة .

([1]) نذير العظمة : نزار قباني وتحولات الجسد ،دراسة ،في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م ص ٢٩٠.

([2]) سامي اسماعيل : جماليات التلقي ، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٨٨

ثانيا :سعرية المشهد الشعري في قصائده . فنزار لا يكتفي بالمواقف بل يترجم إلى مشاهد يبتكرها الشاعر الفنان ليلائم موقفه ويلتحم معه في أغلب الأحيان ، وإن خف ذلك في بعض نصوصه المتأخرة .

ثالثا: شعرية اللغة إذ اخترق نزار جدار اللغة وكون لنفسه لغة شعرية متميزة بصورها وأدواتها ومفرداتها ولا يكاد يشاركه فيها شاعر آخر.... "([1]). إن الفجوة بين المعرفة الجمالية والتاريخية إذن ، يجب أن نتخطاها بخطوة عملاقة ، متأنية حتى نجمع بين التاريخ والأدب .

استنتاج :

مهمم يكن من أمر ، فالمتلقي هو مركز العملية النقدية والمراجعية التاريخية والجمالية لأي عمل فني أو أدبي ، وهو الذى يؤسس لهذا البُعد الناتج عن إرادة واعية في تفعيل استجابته نحو استراتيجية النصية ، وإن العمل الأدبي بدوره لا يجد لنفسه موضعا ، داخل التاريخ دون المشاركة الفعالة لهؤلاء المتلقيين ، هو الذي يُفعل أيضا الخبرة الأدبية حيث يصبح من الممكن العبور من القراءة البسيطة المنفعلة إلى قراءة واعية وفاعلة ، ومن قراءة بسيطة إلى فهم نقدي مؤسس . وإن منطلق العلاقة بين العمل والقارئ هو منطق المحاورة والمساءلة ،منطلق اللقاء بين العمل وجمهوره الأول المزامن للعمل ، مما يتيح لهذا الجمهور أن ينتج حكما جماليا متضمنا داخل فعالية استقباله لهذا العمل ؛ لكنه حكم يحيل إلى مرجعية الأحكام التي قرئت بها الأعمال السابقة . كما أن هذا الفهم المبدئي للعمل يمكنه أن يتطور من جيل إلى جيل ، ويشكل بالتالي سلسلة من الاستقبالات يمكنها أن تؤكد الأهمية التاريخية للعمل ، هذه التاريخية التي تنفي عن العمل شكل سيعرض نفسه في كل مرة بالشكل الذي ظهر به سابقا ، والأدب لا يمكن أن ينبت الاحين يصبح موضوعا للخبرة الجمالية .

([1]) نذير العظمة : نزار قباني وتحولات الجسد ،دراسة ،في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م ص ٢٩١، ٢٩٢.

مراجع البحث:

١. جواد على الطاهر :مقدمة في النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م
٢. روبرت سي هول :نظرية الاستقبال ترجمة : رعد عبد الجليل – دار الحوار للنشر سوريا –١٩٩٢
٣. رونان ماكدونالد: موت الناقد ترجمة فخري صالح المركز القومي للترجمة ٢٠١٥م
٤. سامي اسماعيل : جماليات التلقي ، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م
٥. سلمي الخضراء الجيوسي :نزار قباني ودوره في تاريخنا الادبي دراسة – في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م
٦. سيد قطب :النقد الأدبي اصوله ومناهجه، ، دار الفكر العربي، مصر، دط، د.ت
٧. صلاح فضل مناهج النقد المعاصر ميريت للطباعة والنشر ٢٠٠٢
٨. ضياء الصديقي ، عباس محجوب : فصول في النقد الأدبي وتاريخه ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، مصر ، ط١ ،١٩٨٩م
٩. عبد العزيز طليمات ، فعل القراءة ، بناء الذات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، المغرب
١٠. عبد الكريم شرفي : من فلسفات التأويل الى نظريات القراءة ،منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ،٢٠٠٧م
١١. عبد الناصر حسن محمد : نظرية التوصيل وقراءة في النص الادبي ، المكتب الصري لتوزيع المطبوعات ، مصر ،١٩٩٩م
١٢. عبدالعزيز المقالح :نزار قباني وشعرية الوخز بالكلمات ، دراسة – في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م
١٣. علي جواد الطاهر : مقدمة في النقد الادبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩م
١٤. ماهر فهمي: المذاهب النقدية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١ ، ١٩٦٢م
١٥. محمد أحمد على : في تأويل النص الأدبي ، عالم الكتب الحديث ، أربد الأردن ،ط١، ٢٠٠٦م
١٦. محمد الزينو السلوم: أشعار نزار قباني بين قوسي قزح، كتب عربية، د.ت
١٧. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ،١٩٦٩م
١٨. نبيل خالد أبو علي : نزار قباني شاعر المرأة والسياسية ، مكتبة مدبولي ١٩٩٨م
١٩. نذير العظمة : نزار قباني وتحولات الجسد ،دراسة ،في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م

٢٠.نذير العظمة : نزار قباني وتحولات الجسد ،دراسة ،في كتاب نزار شاعر لكل الاجيال – دار سعاد الصباح ١٩٩٨م
٢١.نزار قباني : الأعمال السياسية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، بيروت، لبنان ، ج٣ ، بدتا ، ص٢١
٢٢.يوسف نوفل: أعلام وعلامات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م